ثقافة التواصل والحوار والانفتاح



قال تعالى في محكم كتابه العزيز: (ياً أيَّهُا النَّاسُ إِنَّا خَلاَقَْدَاكُمْ مِنْ ذَكَرِ وَالْنَوْءَ الْكَثْرَ مَكُمُ عَيِدْدَ الْإِنْدَ مَاكُمْ وَجَعَلَا نَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لَيتَعَارَ فُوا إِنَّ أَكَرْرَ مَكُمُ عَيِدْدَ الْإِنَّا مَنْ الْمَاعِنَ وَالنَوْاعَاتُ الدائمة، لا تنشأ من وجود الاختلاف والتنوّع، وإنَّما تنشأ من العجز عن إقامة نسق مشترك يجمع الناس ضمن دوائر ارتضوها. والحوار بين الإنسان وأخيه الإنسان، من النوافذ الأساسية لصناعة المشتركات التي لا تنهض حياة اجتماعية سوية من دونها. كما وإن التزام الأدب وحُسن الخلق عموما ً، والتواضع على وجه الخصوص له دور كبير في إقناع الطرف الآخر، وقبوله للحق وإذعانه للصواب، فكل مَن يرى من محاوره توقيرا وتواضعا ً، ويلمس خلقا ً كريما ً، ويسمع كلاما طيّيبا ً، فإنه لا يملك إلا أن يحترم محاوره، ويفتح قلبه لاستماع رأيه.

وعليه فإن "الحوار لا يدعو المغاير أو المختلف إلى مغادرة موقعه الديني أو الثقافي أو السياسي، وإنسّما هو لاكتشاف المساحة المشتركة وبلورتها، والانطلاق منها مجددا ً ومعا ً في النظر إلى الأُمور. والدسّرين الإسلامي أو ْلى العناية والاهتمام بقيمة الحوار والدعوة والمجادلة بالتي هي أحسن، وذلك لأنسّه لا دين بالفرض والقهر والإكراه (لا إ ِ كَ ْر َاه َ ف ِي الد ِ سن ِ ق َ د ْ ت َ بَ يَ سنَ الرّ أُش ْ د ُ م ِنَ الد ْ عَي ") (البقرة / 256). وقال تعالى: (و َلا ت َس ْ ت َ و َ ي الد ْ ح َس َ ن َ ة ُ و َلا السّ َ ي ِ سّ َن َ ه ُ و َل ي سنّ أَ ح ْ سَ َن ُ فَ إ ِ ذ َا السّ َ ذ َا السّ َ ذ َا السّ َ دَي ب َ ي ْ ن َ لَ و َ ب َ ي ْ ن َ ه ُ ع َ د َ او َ ة ْ كَ أَ ن ّ َ ه ُ و َل ي سنّ ح َ م ِ ي َ فَ سَلَت اللهِ م و الله اللهِ م ي اللهِ م ي ي ن أَ و سَل اللهِ م ي ي ن أَ و سَل اللهِ ع م ي أَ و سَل اللهِ م ي اللهِ اللهِ و الله و الله و ك ك أن الله و ك الله

يفتح الحوار بين الأديان والتعبيرات الاجتماعية والثقافية والسياسية، آفاق التعاون، ويـُبلور أُطر التضامن، ويـُدخل الجميع في قافلة الدفاع عن المقد سات ومواجهة التحد يات. وبالحوار يكون الإسلام قاعدة للفكر والعاطفة والحياة، فلا يثير في داخل البشر شعورا ً سلبيا ً لا داعي لإثارته، ولا يـُواجههم بأفكار سريعة تحتاج في وصولها إلى أفكارهم لمقد مات طويلة، تـُهي ّئ الجو النفسي، وتمه للارضية الفكرية لذلك. ولا يحطم مشاعرهم بالقسوة في الكلمة والحركة والأسلوب. بل يعمل على أن يلامسها باللطف واللين والحكمة، لتكون المدخل الطبيعي للثقة والعاطفة المتبادلة التي تمنح الفكر حالة الهدوء، والشعور حالة الطمأنينة، وهما المدخل الطبيعي لتكوين القناعات والوصول إلى روحية الإيمان.

ولعلنا لا نبالغ عند القول: إن "التكليف الرباّاني الأو "ل للإنسان على وجه هذه المعمورة وهو خلافة الإنسان، كان الباري عز ّوجل ّ يحاور ملائكته ويوضح لهم دواعي اختياره. ويختم الباري عز ّوجل ّ حوارهم عند حدود المعرفة التي يملكونها بقوله (و َإِنْ قَالَ رَبُّكَ لَـلْمُلَائِكَةَ إِنْ يَعلَكُونها اللّرْضِ خَلَيهُ الله مَن ْ يُفْسِد ُ فَيها و َيَسْفَكُ الدّ مَاءَ الأرْضِ خَلَيها و َيَسْفَكُ الدّ مَاءَ وَنَعَنْ نُسُد لَكَ قَالَ إِنْ سَي أَعَلْمُ مَا لا تَعَلْمُ ونَ) وَنُقَد ِ سَّ لَكَ قَالَ إِنْ سَي أَعَلْمُ مَا لا تَعَلْمَ مُونَ) (البقرة / 30)، وأضحى الحوار بعد ذلك هو أسلوب الأنبياء والأوصياء والصالحين عبر التاريخ.

إن عظمة أي ثقافة هي في انفتاحها، وقدرتها على تأصيل مفهوم الحوار والنقد في مسيرتها، فثمة أشياء ومعارف عديدة يتم الاستفادة منها من جراء الانفتاح والتواصل والحوار. والثقافة التي تصطنع الانفصال والانغلاق تبتر التاريخ وتقف موقفا ً مضادا ً من الوعي التاريخي. وإن ّالثقافة الحوارية، هي المهاد الضروري إلى التقد ّم الاجتماعي والسياسي والحضاري. فالحوار يعيدنا جميعا ً إلى اكتشاف ذواتنا، ويقو ّي خيارات التواصل والتعارف، ويدفعنا جميعا ً إلى التخلي عن تلك الخيارات الع ُنفية، التي تمارس النبذ والإقصاء.

إذن الحوار أساس التواصل والانفتاح على الآخر، إنَّها كلمة جميلة رقيقة.. تدل على التفاهم والتفاوض والتجانس. نعم، فما أجمل الحوار إذا ما انطلق من أساس الرغبة في التفاهم.. الرغبة إلى الوصول إلى الحقيقة، وأدب الحوار يعني أدب تجاذب الحديث بشكل عام. إذن الحوار لغة سلسلة ومفيدة بين البشر لا يمكن التخلي عنها لتحقيق هدف أسمى.